بحث محكم | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 19 فبراير 2016

جدل المناهج في الفكر العربي المعاصر

في إشكالية التوظيف الإجرائي للمفاهيم

علي رسول حسن الربيعي
باحث عراقي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

من موقع الحاجة الدائمة إلى المراجعة النقدية لقضايا الفكر العربي المعاصر، تُعدّ إشكالية التوظيف المنهجي للمفاهيم في جانبها الإجرائي واحدة من الإشكاليات الكبرى التي تواجه هذا الفكر، لأنّ أغلب المناهج المُوظفة قد أُنتجت في فكر غير الفكر العربي، وفي تربة معرفية مختلفة، والمطلوب إجراؤها على متن هذا الفكر.

والسؤال ههنا هو عن مدى النجاعة التطبيقية لهذه المناهج، ومدى المقبولية المعرفية لاستعارة المفاهيم المنهجية وتوظيفها؛ فالرهان الأساس لهذه الدراسة مناقشة ما إذا كان لهذه المفاهيم بُعدٌ إبستيمولوجي وإجرائي يمكن الإفادة منه؛ أم أنّ تشكيل وبلورة المفاهيم تبقى مستغرقة بنسبية إيديولوجية ولا تكون سوى دوال محكومة بمرجعيات مدلولها وبسياقاتها الكليّة؟ بمعنى هل تمتلك هذه المفاهيم صلاحية نقل وتوسيع مهمتها؟ تركز هذه الدراسة على مناقشة الوعي المنهجي العربي المعاصر إزاء قضية التوظيف المنهجي للمفاهيم، وطرق هذا التوظيف في جانبه الإجرائي.

فقضية المنهج قضية مركبة في أبعادها، لأنها تتطلب استيفاء مجموعة من الشروط والمقومات تتصل بضرورة الإحاطة بالمنهج المطلوب للتطبيق أولاً، ومدى فاعليته وقدرته على الاشتغال عندما يتم نقله من حقل معرفي إلى آخر ثانياً، وضرورة تقبل الموضوع ذاته لهذا المنهج أو ذاك تحديداً ثالثاً. وألا يكون المنهج مفروضاً من فوق وبشكل قسري على الموضوع محل البحث والدراسة رابعاً، وألا يتم التعامل مع المنهج بوصفه قالباً جاهزاً للانطباق على الموضوع خامساً، ولا بدّ من الانسجام بين المنهج وموضوعه سادساً.

القضية الأساس إذن، تتعلق بالقدرة على توظيف المفاهيم وتفعيل دورها الإجرائي، فالمنهج ليس بضع (قواعد) ولا جملة (خطوات) إلا في النصوص التي تُنظر له، أمّا في حال الممارسات البحثية فلا يكون سوى مجموعة من المفاهيم توظف في معالجة موضوعها، وطريقة هذا التوظيف، ثم إنّ هذه المفاهيم قد توجد في مجال الموضوع نفسه، أو توضع وضعاً، أو قد تستعار من مجال آخر.

من موقع الحاجة الدائمة إلى المراجعة النقدية لقضايا الفكر العربي المعاصر، تُعدّ إشكالية التوظيف المنهجي للمفاهيم في جانبها الإجرائي واحدة من الإشكاليات الكبرى التي تواجه هذا الفكر، لأنّ أغلب المناهج المُوظفة قد أُنتجت في فكر غير الفكر العربي، وفي تربة معرفية مختلفة، والمطلوب إجراؤها على متن هذا الفكر.

والسؤال ههنا هو عن مدى النجاعة التطبيقية لهذه المناهج، ومدى المقبولية المعرفية لاستعارة المفاهيم المنهجية وتوظيفها؛ فالرهان الأساس لهذه الدراسة مناقشة ما إذا كان لهذه المفاهيم بُعدٌ إبستيمولوجي وإجرائي يمكن الإفادة منه؛ أم أنّ تشكيل وبلورة المفاهيم تبقى مستغرقة بنسبية إيديولوجية ولا تكون سوى دوال محكومة بمرجعيات مدلولها وبسياقاتها الكليّة؟ بمعنى هل تمتلك هذه المفاهيم صلاحية نقل وتوسيع مهمتها؟ تركز هذه الدراسة على مناقشة الوعي المنهجي العربي المعاصر إزاء قضية التوظيف المنهجي للمفاهيم، وطرق هذا التوظيف في جانبه الإجرائي.

المنهج: المفهوم/ الإشكالية

بداية، يتلازم المنهج ومعنى التنظيم، حيث تتمثل أبرز خصائصه في تنظيم وتخطيط المعطيات العقلية. فالمنهج على الصعيد النظري طريقة نتوخى الوصول بواسطتها إلى نتيجة علمية[1]. إذ تظهر قيمته وموضوعيته حين يتطابق مع موضوع الدراسة[2]، فقضية المنهج قضية مركبة في أبعادها، لأنها تتطلب استيفاء مجموعة من الشروط والمقومات تتصل بضرورة الإحاطة بالمنهج المطلوب للتطبيق أولاً، ومدى فاعليته وقدرته على الاشتغال عندما يتم نقله من حقل معرفي إلى آخر ثانياً، وضرورة تقبل الموضوع ذاته لهذا المنهج أو ذاك تحديداً ثالثاً، وألا يكون المنهج مفروضاً من فوق وبشكل قسري على الموضوع محل البحث والدراسة رابعاً، وألا يتم التعامل مع المنهج بوصفه قالباً جاهزاً للانطباق على الموضوع خامساً، ولا بدّ من الانسجام بين المنهج وموضوعه سادساً.

القضية الأساس إذن تتعلق بالقدرة على توظيف المفاهيم وتفعيل دورها الإجرائي، فالمنهج ليس بضع (قواعد) ولا جملة (خطوات) إلا في النصوص التي تُنظر له، أمّا في حال الممارسات البحثية فلا يكون سوى مجموعة من المفاهيم توظف في معالجة موضوعها، وطريقة هذا التوظيف، ثم إنّ هذه المفاهيم قد توجد في مجال الموضوع نفسه أو توضع وضعاً أو قد تستعار من مجال آخر[3]. وتبقى قضية المنهج غير

1- نصار، ناصيف: ندوة الفكر العربي ومشكلة المنهج، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 8 / 9، 80 - 1981م، ص 186
2- روزنثال وجماعته: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط 5، بيروت 1985م، ص 502
3- الجابري، محمد عابد: الخطاب العربي المعاصر، دار الطليعة، ط 2، بيروت 1985، ص 11

واضحة إذا لم تقدم أساساً على أنها مسألة مفاهيم، فهي أدوات للعمل يتم استعمالها في كلّ موضوع بالكيفية التي تجعلها منتجة[4].

وعليه، فإنّ قيمة المفاهيم تتعلق بقدرتها على أن تكون أدوات للتحليل والتفسير، والمنهج يكون كالآلة التي يتم فيها فحص الموضوع، وهذه الآلة هي مجموعة المفاهيم التي تخبر بدورها عن فهم مبدئي للظاهرة التي تؤطر النص من حيث طبيعتها وحركتها ووظيفتها[5]. وبذلك يكون المنهج عبارة عن أسلوب في التحليل والتركيب لممارسة نظرية، وخطوات إجرائية لإنتاج فكر يحمل أكبر قدر ممكن من المطابقة مع حقيقة موضوعه، أي من خلال ما يقدِّم من أدوات ومفاهيم تحقق في حضورها تفسير للموضوع، وتمكن من بناء منظور مترابط لشبكة علاقات وعناصر هذا الموضوع. لذلك تعود قوة المنهج إلى وحدة وانسجام مفاهيمه وتماسكها في التوظيف الإجرائي بصرف النظر عما إذا كانت ذات أصول نظرية واحدة أم مختلفة؛ فيمكن للمنهج أن يقوم بتقصٍّ جذري يجعل فرعاً معرفياً معيناً ينتقل من مرحلة ماضيه الإيديولوجي إلى مرحلة حاضره العلمي.[6]

تبرز إشكالية المنهج في مجريات صياغة منظومات تأويلية[7]، وإنتاج المعنى، فبقدر ما تقوم عناصر المنهج وأدواته وقوانينه بدور مخصب وإيجابي، فإنها تثير الإشكال أيضاً؛ الإشكال الذي يتعلق باستعارة المفاهيم وما تثيره من صعوبات. ومن هنا لا بدّ أن تخضع عملية الاستعارة إلى المساءلة والمراجعة، إذ بدون هذه المساءلة لا يمكن تحديد القيم الإبستيمولوجية المتولدة عن عملية الاستعارة هذه. فالإشكال المنهجي، إذن، ناتج عن الصعوبات والعوائق التي تواجه توسيع دائرة تداول المفاهيم من مجال معرفي إلى آخر[8]، فـ»سير الفكر نحو الحقيقة يجري عن طريق ما يلحق المفاهيم من تغيير، فهذه النقط الثابتة التي يرتكز عليها الفكر تتناسب مع تيار المعرفة والتطوُّر في اتجاهات عدة: تنشأ مفاهيم جديدة، يقتبس بحث علمي ناشئ مفهوماً من ميدان علمي متقدم، ويتدخل الفكر بكيفية خاصة في هذه العملية التي يتخذ فيها المفهوم المستورد نقطة انطلاق جديدة»[9]. بناءً على ذلك، لا بدّ أن نفكِّر في مسألة إبستمولوجية هامة تتعلق بنمط الاستعارة المفاهيمية المنتجة، ونقصد بذلك التفكير في عملية نقل المفاهيم والنتائج المعرفية لهذا النقل والتوظيف أيضاً[10].

4- م. ن، 11-12

5- بن عبد الجليل، المصنف: المنهج الأنثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر العربي الإسلامي الأولى، الفكر العربي المعاصر، العددان 67 - 69، بيروت، 89، ص 32

6- وقيدي، محمد: العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، دار الطليعة، ط 1، بيروت 1983م، ص 32 - 33، كما قام بذلك التوسير في تحليله لفكر ماركس حيث بين أنّ هناك قطيعة إبستيمولوجية حدثت في تفكيره بعد سنة 1845م في كتابه المشترك مع إنجلز (الأيديولوجية الألمانية).

7- فوكو، ميشيل: نظام الخطاب، تعريب: عبد السلام بنعبد العالي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 68

8- عبد اللطيف، كمال: صعوبات الاستعمال المنهجي للمفاهيم، الفكر العربي المعاصر، العدد 47، 1987، ص 26

9- الطاهر، عزيز: المفاهيم طبيعتها ووظيفتها، مجلة المناظرة، العدد الأول، السنة الأولى، ص 17

10- عبد اللطيف، كمال: صعوبات الاستعمال المنهجي، ص 26

إنّ إشكالية المنهج تفترض وعياً مركباً بأصول وأوليات المفاهيم من جهة، وبكيفية استحضار الموضوع المنقول إلى ساحة تلك المفاهيم من جهة أخرى[11]، فتبدو المسألة في غاية التعقيد لارتباطها بمدى الفاعلية الإجرائية للمفهوم، حيث إنّ أهمية المفاهيم الإجرائية في التفكير المنهجي تكمن في مدى قدرتها على تمكيننا من النظر إلى الوقائع على ضوئها، فنكتشف كثيراً من الوقائع بهديها[12]. وقيمة هذه المفاهيم، أيضاً، في افتتاحها منظورات جديدة تقدم للمعرفة نظرة شاملة إلى مجموعة معقدة من الأسئلة[13]. فمن ضرورات العمل المنهجي أن يدأب البحث عن إنتاج المفاهيم المشكِّلة للمعرفة وشروط تطورها عبر عمليات إعادة الإنتاج[14]. إنّ ما يقوم بوصفه إشكالاً هو اكتفاء عقلانية خطاب المنهج بنظامه الخاص الذي يَبني عليه أنظمته الإبستمولوجية ومنطقته المقتنعة بحقيقتها المتميزة معتمداً الإسناد الذاتي[15]. ومن إشكاليات المنهج أيضاً العلاقة بين أدوات المعرفة وإنتاجها، فهل هذه المفاهيم مسألة منهجية تاريخية بالنسبة إلى المنظور العام للمنهج أم أنها فوق سيولة الحدث التاريخي؟[16]

الصلاحية المعرفية لاستعارة المفاهيم

لا يقف التوظيف المُنتج معرفياً للمفاهيم عند مجرد استعارة المفاهيم والأدوات المنهجية ونقلها من مجال معرفي إلى آخر أو من حقبة تاريخية إلى أخرى من أجل تعميمها والاستفادة منها بتوسيعها أو تضييقها، لكنه يتساءل عن كيفية الاستفادة من الجهاز النظري المفاهيمي الذي تبلور في سياق نظري تاريخي معين للبحث في إمكانية الاستفادة منه خارج الحقل التاريخي الذي تمّ ابتكاره في أفقه[17]، فالتوظيف المنتج للمفاهيم ليس مجرد استعارة للمفاهيم من مناهج مختلفة أو متعددة، وإنما لا بدّ أن يساهم في تقديم رؤية جديدة أو اجتراح مساحة كانت مستبعدة أو لم يُلتفت إليها في الاهتمام والتفكير.

وبناءً عليه، فإنّ التوظيف المنهجي للمفاهيم لا يعني أن تُنقل هذه المفاهيم آلياً وبافتراض مسبق أنها تمتلك الفاعلية الإجرائية في الاستعمال، إذ أنّ النجاعة في التطبيق هي التي تحدد شكل وطريقة استعمال المفاهيم وملاحظة حدود الاستفادة منها، فربما تقتضي الحاجة إحداث زحزحات في المفهوم أو إبداله كليّاً حتى يمكن أن يكون المنهج منتجاً وفعالاً في هذا المجال، فعملية نقل المفاهيم تستوجب المساءلة المستمرة

11- م، ن، ص 28

12- وقيدي، محمد: العلوم الإنسانية والإيديولوجيا، دار الطليعة، ط1، بيروت 1983، ص 110

13- الطاهر، عزيز: المفاهيم طبيعتها ووظيفتها، مجلة المناظرة، العدد الأول، 1989، ص 15

14- صفدي، مطاع: القوة القوية/ التاريخ المختلف، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 3، 1987، ص 8

15- صفدي، مطاع: القوة القوية/التاريخ المختلف، ص 8

16- م، ن، ص 12

17- فرنار، جان بيير: الصراع الطبقي والصراع السياسي في اليونان القديمة، ترجمة كمال عبد اللطيف، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 39، 1986م، ص 66

للطريقة والكيفية التي يتم فيها هذا النقل، من أجل إبراز نمط المعرفة فيها وفعاليتها الإجرائية[18]. وبهذا، فإنّ توظيف المناهج لا يعني استحضار نصوص ومفاهيم هذه المناهج برسومها مع غياب محاور محتواها وبدون أي جهد تأسيسي لإخصاب وموقعة المفاهيم لتوليد رؤية جديدة للحقل الذي نُقلت لاشتغالها فيه كما في التراث العربي الإسلامي، فغير ذات قيمة إنْ ظلت مرجعية التحليل مجرد جملة استشهادات بدون أن تحدث تحوّلاً نوعياً في بنية الظاهرة المدروسة[19].

ليست المسألة هي ما إذا كان ممكناً تركيب مفاهيم مختلفة من مناهج متعددة فحسب، وإنما ألا تُطلق المفاهيم بدون أيّ تحرز أو احتراس على حقبة تاريخية متعددة أو حقول معرفية مختلفة، فلا بدّ من الالتفات إلى نسبية هذه المفاهيم من أجل المساهمة في توسيعها وإعادة صياغتها[20]. لذا المطلوب أن يضع الباحث تفرقة، ويعير اهتماماً إلى أنه لا يمكن استعمال الجهاز المفهومي المتبلور في دراسة المجتمع المعاصر وتطبيقه كما هو بدون حذر على العالم القديم، فمن الضروري التأكيد على الطابع التاريخي للمقولات، وأنّ هذه المقولات هي مجرد مفاتيح لفهم التطوُّر الاجتماعي في كليته، فهي ليست خالدة ولم تكن موجودة دائماً، لذلك يجب الاحتراس من إسقاطها ببساطة على المجتمعات في سياقاتها وخبراتها التاريخية المختلفة[21].

استعمال المفاهيم

إنّ لاستعارة المفاهيم مشروعيتها من أجل اجتراح حقل معرفي أو صياغة فكرية إذا ما تم التعامل معها بطريقة فعالة منتجة تنمي قدراتها وتوسع من نطاقها في التطبيق إرهافاً وتشفيفاً، حتى تمسح حقولاً لم تمسح بعد، وتخترق تخوماً لم تداس بعد، وينبجس معها خطاب في غير متناول المنهجيات التي انتهت أنساقاً مغلقة؛ فكل حقل معرفي يقوم أو يتأسس على جملة من المفاهيم أو المصطلحات التي تُعدّ مفاتيح منهجية لا يستقيم العمل إلا باتباع مدلولاتها حسب طبيعة البحث ورهاناته.

إنّ الإجراء المنهجي يقتضي تحديد تلك المفاهيم التي في ضوئها يتبع الفكر حركيته نحو الغاية المرسومة من النظر، كما يقتضي - إنْ تطلب الأمر ذلك - تتبع التطور الدلالي الذي يلحق بالمفهوم تاريخياً[22]. لذلك فإنّ قيمة أي فكر وقوته تثمن بالقياس إلى المفاهيم والمصطلحات التي يمتلكها أو التي يعدل من محتواها، ونتائجها، وطريقة استعمالها[23]. فالمفاهيم صورة فنية مركبة تمكننا من إدراك واستيعاب موضوعات معينة.

18- عبد اللطيف، كمال: صعوبات الاستعمال المنهجي للمفاهيم، ص 25

19- م، ن، ص 25

20- م، ن ص 29

21- فرنار، جن بيير: الصراع الطبقي والصراع السياسي، ص 66

22- الخراط، محمد، تأويل التاريخ العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2013، ص 35

23- أركون، محمد: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، مركز الإنماء القومي، ط1 بيروت 1987، ص 108

وهي تولد ولادة تاريخية وموضوعية معينة فتعكس صيرورة تاريخية بكاملها ولها قدرة على الاستقلال الذاتي والفاعلية، لذا يمكن إعادة إنتاجها وتطويرها في الظروف التاريخية المستجدة[24].

ولذلك لا تحمل الأدوات المفهومية لمنهج ما في إجرائيتها صورة مطابقة لموضوع واحد بقدر ما تكون ممارسة لتشكيل التفكير؛ فهي ليست أنساقاً مكتملة بحيث تنقل بتمامها من هذا المذهب أو ذاك المرجع، كما أنها لا تبقى متعارضة وعصية على أيّ مقاربة خارج منبتها الأصلي، إنها ارتحال واستكناه يغتني بتعدُّد محايثاته. وهكذا يكون المفهوم الإجرائي مشروعاً للفهم ينخرط في عملية بلورة وتكوين لخطاب أو بحث، يفتح مداخل عديدة ومتنوعة وآفاق غير منظورة على الإشكالي واللا مفكَّر فيه والمسكوت عنه الذي يعيد أرخنته ويفض المسار لوطئه معرفياً، إذ لا قيمة للمفهوم عما يفهمه، فقيمته فيما يجري ويشخص، وأيضاً في ما يجاوز ويشرع من قطاعات جديدة خارج الأسوار والأسيجة المستقر عليها، أو ينير ما هو متحجب ومطمور، أو قد يستشرف منظوراً مغايراً؛ فالتوظيف الهام والفعال يُعيد ترتيب سلاسل المفاهيم بطريقة أخرى أكثر ملائمة، للتنقيب عن اللا معروف الذي يبدّل تشكيل خرائط المعروف، ويبدأ حياكة علاقات ناظمة لشبكة التداولي الذي لم يكن متداولاً من قبل، فليست ثمة وحدة سكونية للمفهوم تحكمها تعارضات أصلية مقفلة على موضوعها؛ فللمفهوم تناصه الذي يتعدّى تجليات معطياتها الأولى.

تتعرض المفاهيم في توظيفها الفعّال والمنتج لعملية تفكيك وإعادة تكوين وتصفية وإضافة؛ فهي عندما تدخل نسيج الخطاب تعيد ترتيب عناصره وعلاقاتها في خارطة معرفية جديدة تتأثر بها المفاهيم نفسها، فيمكن ألا تمارس دوراً منهجياً إجرائياً آخر في الخطاب المتشكّل، فعند استعمال المنهج بفعاليته الإجرائية لا تقتصر المفاهيم على آلية اشتغالها الأولى، ولا تبقى صورة برسم التجريد، إنما تدخل إجراءات العملية الخطابية، فتبعد عنها، وتضم لها توظيفات جديدة، وتحملها سمات الخطاب الذي وظفت فيه.

الاستعارة والمزاوجة المنهجية

لقد بدا استعمال المناهج وتطبيقاتها محلاً لتجاذبات وسجالات عديدة غدت معها الاستعارة المفاهيمية من حقول معرفية مختلفة مدار إشكال كبير في الفكر العربي المعاصر، بل بدت معيبة ومثيرة للقدح أحياناً. كذلك فإنّ المزاوجة المنهجية كانت موضع جدل كبير أيضاً، فصفدي، مثلاً، يرى أنّ الجمع بين التحليل البنيوي والتحليل التاريخي يثير قضايا منهجية كثيرة ليس من السهل تبريرها، ناتجة من الجمع بين منهجين متعارضين منطقياً ومعرفياً وهي التكوينية التاريخية والبنيوية السكونية[25]؛ فـ«ليس من السهل أن نقوم بنقل

24- غصيب، هشام: نحن والفكر المستورد، ضمن كتاب "الفلسفة العربية المعاصرة"، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984، ص ص 434 -436

25- صفدي، مطاع: استراتيجية التسمية، في نظام الأنظمة المعرفية، مركز الإنماء القومي، ط1، بيروت 1986، ص 304

المفاهيم كما هي، تحت غطاء كليّة وكليانية مفترض أو قسرية أو بدافع نزعة يقينية مطلقة»[26]، كذلك يرى إسماعيل أنّ القول بإمكانية الجمع بين منطلقات نظرية (بنيوية وتاريخية وأيديولوجية) لا يكون مقبولاً، لأنّ البنيوية هي إيديولوجيا أيضاً، ولا تستقيم مع التاريخية، وكلّ المحاولات التي جرت لتلقيحها بالنقدية التاريخية أسفرت عن عجز كامل في التطبيق، فضلاً عن تناقض هذه (اللقاحات) مع البناء النظري للبنيوية أصلاً[27]. وههنا يرى رسول محمد رسول أنّ مشكلة الجمع بين النزعة البنيوية والتاريخية في سياق منهجي واحد غير محلولة، لا بل هناك تضاد جوهري بين الطرفين[28]. والأمر نفسه ينطبق على نقد طيب تيزيني الذي يرى أنّ مثل هذه المزاوجة لا تفقد المناهج جاهزيتها المسبقة فحسب، وإنما تقود إلى التساؤل حول «ما هي المسوِّغات الإبستيمولوجية التي تؤسس لعملية الانتقال من مناهج مفردة ينظر إليها ملتئمة حالما تستجمع بصيغة المزاوجة؟ فهل فقدت المناهج المذكورة ما كان يقف دون التئامها، ويشكل حواجز منهجية بينها؟ لا نظنّ هذا أو ذاك، وإنما نرى في الأمر شكلاً من أشكال الاختراق المنطقي، وانتهاكاً لما يجعل من المناهج المتعددة أنساقاً منهجية محددة؛ إذ أنّ من شرائط «الوضوح المنهجي» أن تكشف الحدود القائمة والمحتملة بين «المناهج»، وذلك كخطوة لازمة تفضي إلى تقصي هذه الأخيرة، وإلى وضعها في السياقات الفكرية والمعرفية التي انتهت إليها وجعلت منها ما أصبحت عليه كأنساق مختلفة ومتمايزة. إنّ عملية المزاوجة تعبر عن نزعة تلفيقية تضع المناهج كلها في كيس واحد. إنها خطوة باتجاه المفارقة المنطقية، فعندما يأخذ الباحث بمناهج متعدِّدة يتصور أنها تفقد جاهزيتها بمجرد جمعها سوية ومزاوجتها على نحو يسمح بدفع شبهة الجاهزية عنها»[29]. أمّا عبد اللطيف فيرى أنّ الاستعمال المنتج لهذه المفاهيم عند نقلها من مجال معرفي إلى مجال معرفي آخر يقتضي تجنب استعمالها اللفظي من أجل توظيفها توظيفاً إجرائياً يزيد من قوتها التعميمية، ويمنحها صلاحيات منهجية أوسع[30]؛ فنقل مفاهيم معينة ذات دلالة محددة فى إطار مرسوم إلى واقع مختلف لا يقود إلا إلى الغموض والرمادية[31].

يعبّر هذا النقد عن الاستجابة السلبية لوحدة المناهج والتسليم بطريقة امتثالية لما تدّعية من أنها المنهج الأوحد الأفضل. ينتهي هذا النقد وجداله إلى موقف يلغي إمكانية استعمال المفاهيم بعد استعارتها من مجالها التداولي إلى مجال آخر، ولا يعطي أهمية لما يمكن أن تُحدث من زحزحات في دورها المنهجي. إنه نقد ينظر إلى المناهج كقوالب جاهزة مكتملة البناء وبرسم التطبيق؛ إمّا تؤخذ كلها أو تترك كلها، ومثل هذا

26- م، ن، ص 31

27- إسماعيل، محمود: القطعية الابستيمولوجية، بين المشرق والمغرب، حقيقة أم خرافة؟ مجلة المنار، العدد: 45، عام 1988. ص 13

28- رسول، محمد رسول: أزمة العقلانية النقدية في الفكر العربي المعاصر، مجلة آفاق عربية، العدد 5، 1993، ص 119. تجدر الإشارة إلى أنّ المفكّر العراقي الدكتور رسول محمد رسول أخذ في عام 2015 ينشر سلسلة مقالات يدعو فيها إلى عقلانية نقدية إنسانية مثل مقالته (غرباء الأصل.. أية عقلانية نريد؟) في (جريدة الصباح ـ الملحق الثقافي، عدد يوم الأربعاء 15 تموز/ يوليو 2015، ص 4)، وإلى غيرية إنسانية مثل مقالته (أية غيرية نريد؟) في (مجلة ذوات، العدد 15، ص 62 وما بعدها، الرباط، 2015) ليتواصل مع مشروعه الذي بدأه في كتابه (العقلنة السبيل المرجأ)، الذي صدر عن مكتبة الديار في بغداد عام 1992

29- تيزيني، طيب: من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي، دار المجد، دمشق، 1996، ص ص 56-57

30- عبد اللطيف، كمال: صعوبات الاستعمال المنهجي، ص 31

31- زيناتي، جورج: نقل المنهجيات الغربية والواقع العربي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 8 - 9-80، 1981، ص 130

النوع من الولائية يجعل الاستفادة منها ضعيفة؛ إذ يعتبر أنّ محاولة استعارة مفاهيم تنتمي إلى نظم معرفية مختلفة من أجل توظيفها في نظام معرفي آخر لا يُعدّ من الأمور المنهجية في شيء، ومن ثمّ لا تخرج عن نطاق العمل التلفيقي. وهذا الرفض يعبّر عن موقف مسبق في فهم معنى المنهج وطرق اشتغاله، إذ ينظر إلى المفاهيم المنهجية بصيغة أرثوذكسية صورية؛ تلغي إمكانية تضافر الأدوات المنهجية وتفاعل المفاهيم لتقديم صياغات فكرية مبتكرة. في حين أنّ توظيف المفاهيم وجعلها منتمية خارج مسطح مماثلتها الأولى إبداعاً آخر لها، فليس المفهوم - على ما يقول دولوز - نموذجاً معيارياً، بل هو تركيبي وتوليفي، ليس إسقاطياً ولكنه توصيلي، ليس تراتبياً ولكنه تجاوزي[32].

هذه الملاحظات النقدية تبدو غير دقيقة، لأنها تنظر إلى المناهج وكأنها لا يمكنها استعمال بعض المفاهيم، ونقلها من مجالها التداولي إلى مجال آخر وإحداث زحزحة في تنمية المفهوم وممارساته؛ إذ بالإمكان، مثلاً، مزاوجة التطورية التاريخية بالدراسة التزامنية والآنية، وبذلك يمكن تجاوز ذلك الصراع الذي شاع في الستينات بين الإنثروبولوجيين البنيويين وبين المؤرخين (أو الصراع بين البنية والتاريخ)[33].

المطلوب هو ألا يُنكر ما للمناهج ومفاهيمها من مشروطية في سياقاتها التاريخية والفكرية، والتي تتطلّب أهمية التأصيل المعرفي والاصطلاحي للمفهوم، فتصل هذه الآراء أخيراً إلى نتيجة أو رأي موحد، هو تبيئة مفاهيم تنتمي إلى أنظمة معرفية متعددة وتوظيفها في حقول معرفية وثقافية أخرى، وهذه لا يمكن أن تُعدّ عملية منهجية ناجحة ومنتجة، ولا تخرج من ثمّ عن نطاق محاولة تلفيقية لا قيمة لها.

إنّ الموقف الذي يعدّ المناهج أنساقاً ذات حدود صلدة مصمتة فاقدة المطاوعة تنبت في تربة معرفية ولا تنقل إلى أخرى ناتج عن استحضار مرجع أخير لكلّ منهج ومفهوم ببعد واحد ضيق، تغدو معه المفاهيم حبيسة علاقة دلالية بصورة نهائية، في حين تتبلور للمفاهيم فعاليتها الاشتغالية وأساليبها الإنتاجية في سياق الخطاب الداخلة فيه؛ فليست المناهج أدوات صورية ولا قوالب قارة ذات حدود صلدة، ولا هي أطر فارغة تملأ بمضامين مرّة واحدة لا انفكاك لها بعدها. وهناك العديد من الأمثلة عن التوظيف المنهجي المُنتج والناجح للمفاهيم في الفكر الغربي، ومن بين ذلك ألتوسير وإعادته لقراءة الماركسية مستثمراً عدة مفهومية من حقول معرفية مختلفة: البنيوية، واللسانيات، والتحليل النفسي، وفلسفة باشلار، وجاك مارتيان. كذلك فقد وظّف فوكو مفاهيم عديدة تنتمي لحقول معرفية مختلفة مثل اللسانيات، والأثنولوجيا؛ وأيضاً، ريكور طوّر فلسفة التأويل عند شليرماخر ودلتاي مستعيناً بأدوات مختلفة المصادر، والحال نفسه ينطبق على رورتي وأركون وآخرين.

32- انظر: دولوز، غيتاري، ماهي الفلسفة؟ ترجمة وتقديم مطاع صفدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 198، ص 30

33- انظر، هامش هاشم صالح في: أركون: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، ص 73

تأسيساً على الرؤية المتقدمة، وضرب الأمثلة تطبيقياً عليها، يجعل من الممكن الذي يحمل مبرراته منهجياً ومعرفياً الاستفادة من التوظيف المنهجي الإجرائي للمفاهيم، إذ لا تنفصل قضية نقد الاستعمال المنهجي للمفاهيم بتعميم الأحكام عن محاولات المزاوجة المنهجية، ولكنها تتعلق بكيفية الاستعارة والتوظيف؛ وإذا ما كانت هناك صلاحية معرفية لنقل مفاهيم بعينها، ومدى فاعليتها وإجرائيتها عند التطبيق على أرضية معرفية مختلفة.

ويُثار هنا سؤالان غاية في الأهمية هما: هل هذه المفاهيم التي تمتلك الفاعلية الإجرائية في منظومتها المعرفية وسياقاتها الفكرية الأولى تمتلك الكفاءة ذاتها في منظومة وسياق فكري آخر؟ وهل النتائج التي يتم التوصل إليها بواسطة هذه المفاهيم مقبولة معرفياً ومتماسكة منطقياً ومطابقة تاريخياً أم مهلهلة معرفياً جراء ترقيع وتلفيق إيديولوجي؟

الإجابة بإيجاز تتمثل في «أنّ المنهج مهما كانت علميته ودرجة ضبطه العالية يتوقف مقدار فائدته على مدى مطاوعته للموضوع من جهة، ومدى قدرته على تطويع الموضوع من جهة ثانية؛ لأنّ طبيعة الموضوع هي التي تحدد طبيعة المنهج، وعليه لا تكون كلّ المناهج صالحة من حيث إمكانية الاستفادة منها في كل المواضيع، لا بل حتى المنهج الواحد المنتج في مجال ما قد يكون مجدباً وعقيماً في موضوع آخر»[34]، وهناك فرق بين باحث أسير آلية منهجية صارمة التحديد دائماً ومرسومة الخطوط سلفاً، وبين من يقوم بزحزحة مفاهيمه وعرضها على مهام أضخم. ومن ملاحظة أغلب القراءات الريادية التي اجترحت افتتاحات فكرية استعانت بعدة مفهومية متعددة الأصول المنهجية. فلعل الاستعارة المنهجية تعمل على إنشاء مقالة تجدد في الرؤية وتؤسس حقلاً مولداً للمفاهيم، وتسبر ما كان يقع خارج جغرافية المعرفة، وربما تضعنا أمام استراتيجية جديدة في الفهم والتأويل.

إنّ ظهور منهج ما في حقل معرفي معين يحوز فيه نجاعة في التطبيق، يحقق له قدراً من شرعية الصلاحية المعرفية التي تجعل من المسوّغ استثمار مفاهيمه في حقول أخرى لوضع فاعليتها على المحك. فإذا ما كان توظيفها مثمراً، واستعمالها منتجاً، وأثبتت مقدرة استكشافية، فحينها تكون للمزاوجة المنهجية ميزاتها التي تضيف مزيداً من السعة والتكاملية في التطبيق والإنجاز، وتمدنا بأدوات أكثر رهافة في النظر وأكثر صلابة في الحفر المعرفي؛ فلا أهمية لأنساق منهجية تامة لا تكون إلا هياكل فارغة وغير منتجة.

إنّ المسألة لا تتعين، هنا، في الصحيح والخاطئ من استعمال مجموعة مفاهيم ذات أصول معرفية متعددة، ولكنها تختص بمعرفة إلى أي حد يمكن توليف الانسجام والتساند والتعاضد بين المفاهيم بوصفها

34- الجابري، محمد عابد: رؤية عصرية للتراث العربي الإسلامي منهج وتطبيق، الموسم الثقافي لكلية الآداب، جامعة الكويت، 88-1989، ص ص 241-240

ذات بعد إبيستيمولوجي يُمكّن من تداولها وأعطائها توظيفات جديدة في حقول معرفية مختلفة، أي كيف نخصبها ونستثمر فاعليتها؟ وكيف نحاذر من اختراق الإيديولوجي لدورها الإبستيمولوجي والإجرائي؟

ومن هنا، ضرورة الاحتراس عند استعمال شبكة المفاهيم المتبلورة من دراسة حقبة تاريخية معينة وتطبيقها كما هي على حقبة أخرى، فالمفاهيم المنهجية ليست خالدة، إنها لم تكن موجودة دائماً، ولا تسقط بدون تحرز على مراحل وحقب مختلفة[35]. ويظهر تفكيك هذه المفاهيم من أنها وقائع تاريخية لها شكل بنائي لفكر قائم في زمان ومكان معينين، وتنمو في منطق خاص بوساطته المجموع التحليلي بين التاريخ والعلم والإيديولوجيا متخذة صورة ترابط نظري وبطانة إيديولوجية مهيمنة[36].

الموضوع وعلاقات المفاهيم

المفاهيم المنهجية لتوظيفها تأثير سلبي على العملية الإجرائية إذا لم تدخل في عملية تفاعل مستمر مع جميع عناصر الموضوع، وفيما بينها أيضاً؛ فتخضع عند استعمالها لمجموعة من التحولات بين مكوناتها والآفاق التي تحملها[37]. وكذلك فإنّ صيغة انتظام المفاهيم بالنسبة لبعضها داخل النسق الواحد، وتقديم البعض وتأخير البعض الآخر تنطوي على أكثر من اختيارعلمي، وتفضيل إيديولوجي، هذه الصيغة لا بدّ أن تخضع لتساؤل دقيق، فمن الناحية الإبستمولوجية من المبرر تماماً التساؤل عن مدى العلاقة بين نظام معرفي خلقي يقود عقل الباحث وبين نظام معرفي متضمن في الصيغة ذاتها التي هي موضوع الدرس، ما هي علاقة التفاعل بين هذين النظامين؟ وكيف يمكن لأحدهما أن يتغلب أو يمتص الآخر؟ وأين في النهاية معايير الموضوعية فيما بينهما؟ إنّ الشكل الذي يأخذه انتظام المفاهيم بالنسبة لبعضها داخل النسق المعرفي، إنما يقدم هذه المفاهيم من خلال بنية تفرض تفسيرها في اتجاه معين مقدماً[38].

يعبّر المنهج في جانب أساسي منه عن تناسب في علاقة ترابطية، تداخلية بينه وبين موضوع دراسته، حيث يظهر التلازم بين الموضوع وما يتطلبه من منهج يكون مهيأ للدخول في صلبه حتى يقوم، أي المنهج، بنقل الموضوع من خانته ومحوريته المعرفية إلى أخرى، ويبرز تشكله الجديد الذي يكشف عن طبيعة العلاقة بين «الحقيقة والمنهج» من خلال الدور التحليلي النقدي الذي يكشف جذور ثوابت الموضوع المحورية حتى يتحقق الفهم والتفسير.

35- فرناز، جان بيير: الصراع الطبقي والصراع السياسي في اليونان القديمة، ص 66
36- الخطيبي، عبد الكبير: النقد المزدوج، دار العودة، بيروت، ص 157
37- حافظ، صبري: الشعر والتجديد / إشكالية المنهج، الفكر العربي المعاصر، العددان 38، 1986م، ص 78
38- صفدي، مطاع: النمذجة بين التأويل والتغيير، الفكر العربي المعاصر، العدد 40، 1986، ص 11

تأتي مزالق التطبيق التي ينطوي عليها نقل المنهجيات إلى حقل مختلف عن الحقل الذي تبلورت وتطورت فيه من التغاضي عن أنّ كل منهجية مرتبطة بمرحلة تاريخية - اجتماعية معينة، فهي إذن نسبية وتفتقد الشمولية والتعميم عندما نحاول نقلها من تربة إلى أخرى[39]؛ أي إذا لم يرافقها احتراز وكفاءة في التوظيف والاشتغال وقدرة على الإجراء. لكنّ هذا القول لا يلغي إمكانية قيام وعي منهجي نقدي يكون له استقلاليته عن كل إنتاج له في حالة تعبيره عن مضمونه وما يتطابق وأهدافه، حيث يكون هذا الوعي أكبر وأشمل من كل نتاجاته، ويمكنه التحرر من حدود المنتج إلى فاعلية إعادة الإنتاج.

وفي سياق أزمة المنهج في الفكر العربي، تُعدّ قضية البحث عن المنهج الملائم قضية مركزية، وغالباً ما يحصل سوء تعامل مع هذه القضية، إذ يسقط المنهج في استعراضية قد تنتهي إلى إصدار أحكام عامة لا صلة لها بالخلفية الفكرية المسببة لأزمة المنهج في الفكر العربي، وبالتالي لا نبحث عن المعطيات الذاتية في قدرات الاستيعاب والتحويل والتعضية، والمعطيات الموازية لها في أنسنة المعرفة وتحديد علاقة العلماني بالإيديولوجي، فجريان النهر لا يتحقق بالامتلاء بالمياه فقط، لكن بقدرته على حفر المجرى والانسياب وعدم الجفاف، أي الانسجام مع الطبيعة[40].

إنّ ضعف الفكر العربي الحديث هو نتيجة لانتشار المنهجية التبريرية غير المنضبطة بشروط العقل ومتطلباته الصارمة، وللخلاص من هذه الحالة لا بدّ أن نجد منهجيات تمتلك القدرة والفاعلية على إرهاف موضوعها وتفسيره. ونظرة عامة لقضية المنهج عند الباحث العربي الحديث تعطينا تصوراً عن فهمه للمنهج باعتباره أداة وصفية وأحكام قيمية في أغلب الأحيان[41]، ومما يؤدّي إلى التلبك المنهجي هو التداخل الحاصل بين القول السياسي والقول المعرفي، حيث يتعرض المعرفي لاختراق إيديولوجي. وعليه فمن اللازم اليوم أن نعيد كتابة كلّ التاريخ المرتبط بالإسلام كتراث عن طريق التساوق والربط بين المنهجية التاريخية المهتمة بدراسة التغير والتحول عبر الزمن وبين المنهجية (الإنثروبولوجية) المهتمة بدراسة البنى في محطة زمنية ثابتة ومحدودة[42]، لأنّ المنهج لا يكتسب أهميته من جانب الأدوات المعرفية فقط، بل كذلك من الجانب الإيديولوجي باعتبار الاختيار المنهجي لا يعبّر عن رغبة ذاتية بقدر ما هو نابع من ضرورات مرحلية تاريخية واجتماعية. فلا بدّ من التساؤل عن كيفية الاستفادة من الجهاز النظري المفاهيمي الذي تبلور في سياق نظري تاريخي معين للبحث في إمكانية الاستفادة منه خارج الحقل التاريخي الذي تمّ ابتكاره في أفقه[43].

39- صفدي، مطاع: الفكر العربي ومشكلة المنهج، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 8-1981-980، ص ص 4 - 5

40- علوش، سعيد: زمن المنهج الأدبي بين جيلين، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 8 / 9، 80 - 1981، ص 96

41- زيناتي، جورج: نقل المنهجيات الغربية، ص 127

42- أركون، محمد: الفكر الإسلامي قراءة علمية، ص 73

43- فرنار، جان بيير: الصراع الطبقي والصراع السياسي، ص 66

بناءً على كلّ ما تقدم، يمكن أن نخلص إلى أنّ مسألة التوظيف المنهجي للمفاهيم ودورها الإجرائي لا تتعلق أساساً فيما إذا كانت المفاهيم المستعملة تعود لمنهج واحد أو تعود في أصولها إلى مناهج متعددة. بل إنّ اتباع منهج واحد والدعوة إليه دون التساؤل عن أبعاد الموضوع غالباً ما يؤدّي إلى إحداث خلخلة في بناء جميع عناصر الموضوع[44]. وعلى الرغم من كلّ ما يعتري المنهجيات من نواقص، فإنها تبقى محاولات لتوسيع أفق الفهم، فرفض المنهجيات المنقولة لا يأتي إلا بالانغلاق، والانفتاح على الآخر والحوار الحضاري ومعرفة الذات بتوسط الآخر تكون من المكونات الأساسية لكل عطاء جديد [45].

وعليه، يُعدّ من الجزمية أن يُحدّد منهج واحد لموضوعات مختلفة، فليس المهم أن نجد مفتاحاً لكل الأبواب، بل أن نجد عدداً من المفاتيح يساوي عدد الأبواب. وليس المنهج نظاماً من الجمل التأصلية ولا هو أنطلوجيا قبلية تقدّم مساطر عامة جاهزة يجري قصّ الخاص على مقاسها، لأنّ هذا الموقف يوقعنا في التخطيطيَّة المجرَّدة.

44- بو علي، عبد الرحمن: عناصر أولية لمقاربة سيميو ـ سوسيولوجية، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الأول، 1988، ص 74

45- زيناتي، جورج: نقل المنهجيات الغربية، ص 130

مسرد المراجع والإحالات

المراجع:

- أركون، محمد: الفكر الإسلامي، قراءة علمية، مركز الإنماء القومي، ط1 بيروت، 1987
- إسماعيل، محمود: القطعية الإبستمولوجية بين المشرق والمغرب، حقيقة أم خرافة مجلة المنار، العدد: 45، 1988
- بن عبد الجليل، المصنف: المنهج الإنثروبولوجي في دراسة مصادر الفكر العربي الإسلامي الأولى، الفكر العربي المعاصر، العددان 67 - 69 بيروت، 1989
- بوعلي، عبد الرحمن: عناصر أولية لمقاربة سيميو - سوسيولوجية، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد الأول، 1988
- تيزيني، طيب: من الاستشراق الغربي إلى الاستغراب المغربي، دار المجد، دمشق، 1996
- الجابري، محمد عابد: الخطاب العربى المعاصر، دار الطليعة، ط 2، بيروت 1985
- حافظ، صبري: الشعر والتجديد/ إشكالية المنهج، الفكر العربي المعاصر، العددان 36-38، 1986
- الخراط، محمد، تأويل التاريخ العربي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2013
- الخطيبي، عبد الكبير: النقد المزدوج، دار العودة، بيروت. بلا تاريخ.
- دولوز، غيتاري: ماهي الفلسفة، ترجمة وتقديم: مطاع صفدي، المركز الثقافي العربي، بيروت، 1989
- رسول، محمد رسول: أزمة العقلانية النقدية في الفكر العربي المعاصر، مجلة آفاق عربية، العدد 5، 1993
- روزنثال وجماعته: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، ط 5، بيروت، 1985
- زيناتي، جورج: نقل المنهجيات الغربية والواقع العربي، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 8-9-80-1981
- صفدي، مطاع: القوة القوية / التاريخ المختلف، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 3، 1987
- الطاهر، عزيز: المفاهيم طبيعتها ووظيفتها، مجلة المناظرة العدد الأول، السنة الأولى، 1989
- عبد اللطيف، كمال: صعوبات الاستعمال المنهجي للمفاهيم، الفكر العربي المعاصر العدد 47، 198
- علوش، سعيد: زمن المنهج الأدبي بين جيلين، مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 8/ 9، 80، 1981
- غصيب، هشام: نحن والفكر المستورد، ضمن كتاب «الفلسفة العربية المعاصرة»، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1984
- فرنار، جان بيير: الصراع الطبقى والصراع السياسى في اليونان القديمة، ترجمة: كمال عبد اللطيف، مجلة الفكر العربي المعاصر العدد 39، 1986
- فوكو، ميشيل: نظام الخطاب، تعريب عبد السلام بنعبد العالي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985
- مطاع صفدي: استراتيجية التسمية، في نظام الأنظمة المعرفية، مركز الإنماء القومي، ط1 بيروت، 1986
- مطاع صفدي: التاريخ المختلف، الفكر العربي المعاصر، العدد 43، 1987
- مطاع صفدي: النمذجة بين التأويل والتغيير، الفكر العربي المعاصر، العد 40، 1986
- مطاع صفدي: رؤية عصرية للتراث العربي الإسلامي منهج وتطبيق، الموسم الثقافي لكلية الآداب، جامعة الكويت، 1988
- نصار، ناصيف: ندوة الفكر العربي ومشكلة المنهج، مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 8/ 9، 1980-81
- وقيدي، محمد: العلوم الإنسانية والأيديولوجيا، دار الطليعة، ط 1، بيروت، 1983

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016